درجات الناس

تأليف الأستاذ طه محمد الساكت

للأستاذ منصور جاب الله

كلما هممت بإرسال المقال فى هذا الكتاب ، صرفتنى عنه أشاغيل طرآنية ، أو حجزتنى صوارف الدنيا من هم أو مرض

صديق الزوج ضعيفة باهتة جدا يمكن وصفها بأنها لا لون لها ولا رائحة ، ولم يستطع أن ينفث الحياة فى شئ مما قال بتاتا؛ مع أن فى دوره ما كان يمكن أن تدب فيه حياة حارة نابضة

٥ — كان وضع « الميكروفون » غير حكيم ، فالصوت كان يخفت جدا إذا جرى الكلام فى مؤخرة المسرح ، ويقوى ويشتد حتى يمتلئ حشرجة إذا جرى الكلام فى مقدمة المسرح ، وصوت الممثل ينبغى أن يكون نقيا خالصا من هذه الحشرجات والنتوءات الصوتية التى قد نفتقرها فى السينما

هذا — وقد كان الزوج وزوجه والحورية وأعنى بهم : الأستاذ نور الدمرداش والآنستين ملك الجمل وزهرة العلا بكير ، كانوا يقومون بأدوارهم قياما يشكرون عليه . أما الأستاذ أحمد الجزيرى فقد بلغ شأواً بعيداً فى تمثيله حيث كان ينطلق انطلاقاً طبيعيا لا تكلف فيه ولا صنعة مما يستحق عليه أطيب الثناء

وبعد : فتلك كلمة إجمالية لم نذهب فيها مذهب التفصيل والإسهاب ، ولم نعرض فيها إلا القليل من الحسنات والقليل من السيئات ، راجين أن تتتبع الحركة الفنية القائمة بالمرض والنقد والتسجيل ، ولن يحدونا إلا الحق وحده

على حسنى صبرى

أو عملا بيد أنى الساعة حريص على الكتابة فى هذا السفر رغم هذه الشكاة التى تمرقنى منذ مطالع شهر رمضان !

* * *

أول ما يطالع القارئ فى هذا الكتاب صورة ضوئية لمسجد يحيى باشا الكبير فى رمل الإسكندرية ، والقارئ العادى لا يعرف المغزى فى نشر هذه الصورة حتى يقرأ ما كتب فى الصفحة المقابلة ؛ إذ يروى المؤلف نص الدعاء الذى حاول « أن يدعو به مرة عقب صلاة الفاروق — أيده الله — بمسجد يحيى باشا ليؤمن المصلون على دعائه ، فحال الحرس بينه وبين بغيته »

وإذن فالكتاب وليد عقدة نفسية عند المؤلف بقيت تحز فى نفسه طوال هذه الحقبة . ومما يؤيد هذا المذهب أن الأستاذ المؤلف ذكر فى الصفحة الأخيرة من مؤلفه أن أصوله عنده منذ أربعة عشر عاما ، أى منذ أن حاول الدعاء لليلة فى مسجد يحيى باشا فحيل بينه وبين ما يريد

على أن نشر هذه الصورة العزيزة فى مقدمة الكتاب قد ردنى إلى الوراء بضعة وعشرين عاما ترادفت ترادف الموج فى محيط الزمان ، فإنى لأذكر هاتيك الحلقات التى كانت تلتئم فى ذلك المسجد المعمور بتوسطها العارف بالله الشيخ محمد البوريني إمام الخديو السابق ، وكيف أعادت إلى تلك الدروس ذكريات مدارسات السلف الصالح من أمثال الحسن البصرى وسفيان الثورى ، وأشهد أنى ما حضرت درسا دينيا كان له الأثر فى نفسى ما كان لشيخنا البوريني رحمه الله

ومتصفح الكتاب إذا شاء عرضه على الناس لابد واجد صعوبة ، فهو من كتب التصوف التى أجهد المؤلف نفسه فى جمع شتاتها ومطامنة ضروبها حتى استوت له جملة صالحة عرضها على القارئين . فهو يبدأ بمناجاة ملك الملوك : « حرمت الظلم على نفسك وجعلته بين الملوك محرماً ، وأرسلت إلينا رسلك فضلا منك وكرماً ، ثم أورثت الكتاب الذين اصطفيت من عبادك ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » .

ويخلص من ذلك إلى مخاطبة « السادة الملوك » فيرفع إليهم الحديث فى أدب التخضع الخاشع « هل أتتكم سادتى أنباء الأسفلين من الرعايا إذ ركبوا بحور الظلم والظلمات فى سفائن

باسم الشيطان مجراها ومرساها ارتدوا فيها قراعنة، وتمردوا فيها على الربانية، ثم أخرقوا أسفلها وأنتم العالون، ووقعوا فى حدود الله وأنتم عليها قائمون . وقد بلغ من أمرهم أن سخروا من الناصحين حتى استيئسوا، وهزئوا بالراشدين حتى أيئسوا ! فلم يبق فى النجاة من أمل إلا أن تأخذوا بسلطان الله على أيديهم قبل أن تهلك جميعا بشؤم معاصيهم »

ولعل فى هذه الكلمات القصار التى اقتطفناها ما يوضح مقصد الكتاب وهدفه ، فهو يريد النصح إلى من ملكهم الله الأمر وتبصيرهم مواطن الضعف والقوة فى الأمة ، فإن « صلاح كل من الراعى والرعية يؤثر فى الآخر تأثيراً بليغا ، وإن كان صلاح الراعى فى رعيته أبلغ أثرا وأهدى سبيلا ، وليس من العدل والإنصاف فى شئ أن نتجاهل قوة الرابطة بين الجانبين كليهما فنذكر أثر واحد دون صاحبه »

ويستطرد المؤلف من ذلك إلى تبيان درجات الأفراد ويتحدث عن المثل الكامل ودرجات الأمم ، ويورد بعض الأحاديث فى منزلة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا بلغ الحديث درجات الملوك أورد ذلك الدستور الرشيد الذى وضعه الحسن البصرى للامام العادل عمر بن عبد العزيز فسار على سننه مدة حكمه القصير ، حتى إذا مات نقضه الأحداث من بنى أمية !

وإذ يتكلم المؤلف عن درجات الناس عند الملوك لا تخونه شجاعته وإنما يقول فى صراحة مؤدبة « أعظم الناس عندهم - أى عند الملوك - أسرعهم إلى تحقيق رغباتهم وأشدهم ميلا إلى هواهم ، وأقل الناس درجة عندهم ومنزلة أشجعهم على نصيحتهم وأخوفهم عليهم من بطش الله وعقابه »

« من أجل ذلك تحامى الناس نصحهم حتى الدعاة إلى الله عز وجل وكانوا بين خائف منهم ويائس ، وبالغ كثير من الناس فى مدحهم والثناء عليهم ابتغاء المال والدنيا »

وكم كان جميلا من المؤلف أن يورد شذوراً عن بعض المؤلفات التى وضعت لخدمة الملوك فى عهد السلف الصالح من هذه الأمة مثل سراج الملوك للامام الطرطوشى ؛ وسلوك المالك فى تدبير الممالك لابن أبى الربيع

ولقد كان المؤلف بارعاً فى استشهاده بنكبة المنصور لأبى مسلم الخراسانى والرشيد للبرامكة على أن بطانة السوء لابد أن يفتضح أمرها على الأيام ، وقد قيل لأبى مسلم « لم خرجت الدولة عن بنى أمية ؟ » قال « لأنهم أبعدوا أولياءهم ثقة بهم ، وأدنوا أعداءهم تألفاً لهم ، فلم يعد العدو صديقا بالدنو ، وصار الصديق عدوا بالإبعاد »

وجهد الكاتب جهده فى بيان الدرجات فى القرآن الكريم فذهب إلى أنها ذكرت ثمانى عشرة مرة فى الكتاب المنير فى أربع عشرة سورة نصفها مكى ونصفها مدنى ، ومضى فى تخريجه إلى درجة تشهد له بالبراعة والاجتهاد

وأفرد المؤلف فصلا لحقوق الملك استهله برواية الشعبى عن ابن عباس قال « قال لى أبى : أرى هذا الرجل - يعنى عمر بن الخطاب - يستفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وإنى موصيك بخلال أربع : لا تفشين له سرا ، ولا يجربن عليك كذباً ، ولا تطو عنه نصيحة ، ولا تغتابن عنده أحداً . قال الشعبى : فقلت لابن عباس كل واحدة خير من ألف قال : إى والله ومن عشرة آلاف ! »

ولا نستطيع أن نمضى فى الاقتباس إلى نهايته ، فحسبنا أن نذكر بالحمد تلك « العقدة النفسية » التى تخلفت فى صديقنا الأستاذ طه محمد الساكت قبل بضعة عشر عاما ، فكان نتاجها هذا الكتاب الأول من نوعه بعد عهد السلف الصالح ، وعندنا أنه كتاب وضع للخاصة وإن كان صاحبه نص على غير ذلك فى مقدمته. ففيه من المسائل الفلسفية العميقة ما يحمل القارئ على المطاولة والمجاهدة فى سبيل تفهمها ، وفيه توريات بعيدة المرمى لا يتفتق لها إلا الذهن الخصب الطيع

فعلى هذا الأساس نتقبل كتاب الأستاذ الساكت ونعتبره كتاب تصوف وفلسفة ، ونحمد له هذا الجهد الذى بذل ، ونقدر له هذه الشجاعة فى إبداء الرأى بطريقة مؤدبة ملفوفة ، فلو أن كاتبا غيره تناول مثل هذه الدقائق لزل به القلم ووقع فى نزواته وشطحاته !

منصور عباب الله